المحاضرة التاسعة و العاشرة: نظرية الانساق (الجزء الأول و الثاني)

تمهيد:

النظرية العامة للنسق General System Théory (GST) جاءت هذه النظرية في سياق الانتقال من التفكير التحليلي إلى التفكير النسقي، جاء هذا الأخير انطلاقا من تطور المبادئ والقوانين التي جاءت بها مختلف العلوم على غرار علوم الكون (Cosmology) أين سادت قوانين الميكانيك (مثل إمكانية التنبؤ)، ثم ظهرت قوانين الديناميكا الحرارية التي أدخلت مفهومي غير القابلية للعودة irreversibilité)، وقياس مقدار تدهور الطاقة في نظام ما (الأنتروبي Entropie) في مجال الفيزياء والكيمياء، وغيرها من القوانين والنظريات التي قامت على أساس انتقاد اللاحق للسابق في إطار المبدأ التراكمي في العلم.

عرفت الطريقة النسقية تطورا بالولايات المتحدة الأمريكية خلال الأربعينيات من خلال استخدام مبادئ وأدوات فعالة جاء بها الانفجار المعرفي كالسبرانية الذي أشار إليها (N.Wiener) الذي أدرك التماثل ما بين الأجهزة الميكانيكية و الجهاز العصبي للإنسان فيما يخص مثلا تنقل المعلومات في حلقة مغلقة .

والتطور التكنولوجي خاصة في الإعلام الآلي والأجهزة الآلية، ثم تلتها بعد ذلك مرحلة أخرى هي إنشاء البيولوجي (V.Bertalanffy) سنة 1954 لمجموعة بحوث تعمل على جمع السبرانية (علم مركب من مجموع النظريات متعلقة بالاتصالات وتعديل الكائن الحي والآلات) في طريقة أكثر اتساعا وهي الدراسة العامة للأنساق ، وأيضا أعمال الباحثين التابعين لمدرسة بالو آلتو (Palo ALTO) الذين انصب اهتمامهم بعد الحرب العالمية الثانية بالنموذج العائلي.

وهذا النموذج الجديد لا ينظر للفرد داخل شبكته التفاعلية الطبيعية فحسب، أي داخل محيطه المباشر المعتبر "السياق العائلي" ولكن أيضا داخل سياقات أخرى كالسياق الاجتماعي، الثقافي، الديني الاقتصادي، العرقي والسياسي. فلا يؤخذ دور المحيط إذن بطريقة أحادية الاتجاه وإنما بطريقة ديناميكية دائرية، التي تأخذ بعين الاعتبار التأثيرات المتبادلة ما بين الفرد وسياقه.

ومن هذا المنطلق أصبحت **السببية الخطية** (Linaire) (الموجهة من السبب إلى الأثر) غير صالحة، لأن كل أثر له تأثير ارتجاعي على سببه وبطريقة أخرى يصبح هو الآخر السبب، هذا ما فتح المجال لبروز مصطلح السببية الدائرية (Causalité Circulaire) أو بدقة أكثر السياق الدائري للتفاعلات الذي على إثره فقدت مفاهيم السبب والأثر (causeeffet) أهميتها عند تحليل بنية التفاعلات.

وعلى غرار ما اهتمت به السبرانية الأولى فيما يتعلق بالسياق الدائري للتفاعلات داخل النسق ذاته ، فإن السبرانية الثانية، اهتمت بتعقد التفاعلات ما بين عدة أنساق، ففي السياق العلاجي مثلا يعتبر الملاحظ عنصرا من النسق الذي يلاحظه ، وكلا النسقين ملاحظ وملاحظ يشكلان نسقا جديدا يجمعهما ويسمى بالنسق العلاجي، وكلاهما (المعالجون والعائلات) يؤثر في الآخر، وهذا ما يطرح مشكل المرجعية الذاتية

بالنسبة للمعالج ، علما أن هذا المشكل يطرح كذلك في العلاجات الأخرى كالتحليل النفسي الذي قام بإعداد مصطلحات التحويل وضد التحويل.

أولا: التوجه النسقي في العلوم الاجتماعية :

توجه قديم نسبيا وله جذوره فهو يدرس السلوك في تأثره بأنساق معينة على غرار ما يحدث في الأسرة كنسق، ولهذه الفكرة جذورها في الفلسفة وعلم الاجتماع، فقد أعلن عالم الاجتماع إميل دوركايم أنه يمكن لأي جماعة إنسانية بوصفها نسق، ولم تلق هذه الفكرة قبولا كبيرا من طرف علماء النفس الذين اعتبروا أن الإنسان هو الوحدة المناسبة للدراسة النفسية، بل وحاولوا دراسة وعلاج العقل الإنساني كجزئية مستقلة عن الكائن البشري بوصفه وحدة كلية، وأيضا دراسته بعيدا عن بيئته.

وبلورت فكرة الأنساق وتطبيقها في دراسة الجماعة الإنسانية في مجال علم النفس كانت من تقديم كورت ليفين (Kurt Levin) من خلال نظرية المجال المستوحاة من مبادئ العلوم الطبيعية، حيث أكد أن السلوك الإنساني يعتبر دالة لخبرة الحياة والذي بدوره ينتج عن التفاعل بين الشخص وبيئته .

ومن هنا تغيرت نظرة الكثير من الأطباء النفسانيين فأصبحوا ينظرون للأسرة بوصفها مريضا، وقد اشتق ليفين من المدرسة الجشطالتية صيغتان أساسيتان في دراسة الأنساق الأسرية وهما:

- الأجزاء والعناصر لا توجد بصورة معزولة عن بعضها البعض بل تنظم في صورة كلية.
- اتسام السلوك بالطابع الدينامي أكثر من اتسامه بالطابع الميكانيكي.

وأسهمت الفلسفة عبر التفاعلية (التعاملية) (Transactionalism) في القرن 19 في بروز الاتجاه النسقي من خلال أفكارها الملائمة إلى حد كبير لدراسة الاتصال الإنساني الذي وصفه بيرد ويستل (Bird Whistell) بقوله : أنه لا ينبغي وصفه نموذجا للفعل ورد الفعل ، وإنما كنسق يجب فهمه على المستوى التعاملي، ووفقا لهذا المبدأ فإنه من الخطأ التفكير بأن العلاقة بين شيئين يمكن أن توجد بدون الأخذ بعين الاعتبار كيفية تفاعل العناصر الأخرى في النسق بعضها مع البعض.

ويعتبر المذهب الكلي من جذور التفكير النسقي في علم النفس حيث يذهب إلى أن خصائص الجزء تعود إلى خصائص الكل الذي ينتمي إليه ، وبالتالي لا يمكن النظر إلى الكائن الحي بوصفه كلا متكاملا فقط بل ككونه مكونا متفاعلا مع بيئته فحسب إرنست بيرجيس (Ernest Burgess) فإنه منذ العشرينات وصفت الأسرة باعتبارها وحدة من الشخصيات المتفاعلة، وتم التركيز على هذه النظرة أكثر في منتصف الخمسينات من خلال العلاج النفسي من الزاوية النسقية.

أولا: نظرية الأنساق العامة:

لهذه النظرية جذورها في علم النفس الجشطلتي من خلال مفهوم الصيغة الكلية (gestalt) ومن أبرز روادها ماكس فيرتيمر (Max Wertheimer) وفولفجانج كوهلر (Wolfgang Kohler) وكبرت كوفكا (Kurt Koffka) والذين رسخوا مبدأ هذه النظرية القائل: بأن تحليل الأجزاء لا يمكن أن يقدم فهما جيدا للأداء الوظيفي للكل وهو المبدأ الذي قامت عليه نظرية الأنساق .

ونظرية الأنساق العامة تتناول بالبحث المبادئ الشاملة التي يمكن تطبيقها في كل الأنساق بغض النظر عن مضمون ومحتوى النسق بحيث يمكن تطبيق قوانين الفيزياء والبيولوجيا في علم النفس وفي الاقتصاد وهذا ما جعل بيرتالانفي يعتقد أنها نظرية فعالة بدرجات مختلفة من النجاح والإتقان والضبط والدقة في المجالات المختلفة.

وتنظر نظرية الأنساق العامة إلى العالم على أساس ترابطي، فكل كيان قائم بذاته ينظر إليه من ناحية علاقاته بالكيانات الأخرى والتي تؤثر وتتأثر به، ولا ينظر إليه من ناحية الخصائص المكونة له، تفترض نظرية الأنساق العامة بأن الكل أكبر من مجموع الأجزاء المكونة له، وأن الارتباط القائم بين الأجزاء المكونة لأي نسق يؤدي إلى وجود خصائص جديدة في النسق هي بالضرورة نتيجة لهذا الارتباط والاعتمادية المتبادلة بين الأجزاء المكونة للنسق. فالأسرة كنسق اجتماعي قائم تتكون من مجموعة من الأفراد. ولكن الأسرة تعني أكثر بكثير من مجرد مجموعة من الأفراد، فالتفاعلات التي تحدث بين أفراد الأسرة من مودة ورحمة وحب وعطف وتضحية هي أكثر بكثير من تلك التي تحدث بين مجموعة من الأفراد. ولا تكون كل مجموعة من الأفراد أسرة، ولكن كل أسرة تتكون من مجموعة من الأفراد.

وتفترض النظرية كذلك بأن أي تغيير يطرأ على أي من الأجزاء المكونة للنسق فإنه يؤدي بالضرورة إلى حدوث تغيير في النسق بصفة عامة، كما يؤدي إلى حدوث تغيير في الأجزاء الأخرى المكونة لنفس النسق. وتفترض نظرية الأنساق العامة بأن لكل نسق يوجد هناك إطارا مرجعيا محددا، ويقصد بالإطار المرجعي مجموعة العادات والتقاليد والقيم وكل ما من شأنه أن يحدد سلوك الأفراد داخل النسق، لذا فإن تحديد الإطار المرجعي يكون ضرورياً لفهم الأنساق.

- **تعريف النسق:**

يتم تعريف النسق على أنه "مجموعة من العناصر المتفاعلة أو المترابطة بشكل منتظم بحيث تشكل وحدة واحدة؛ أو مجموعة من الأجهزة أو الأشياء أو منظمة تشكل شبكة خاصة لخدمة هدف مشترك. **او هو** "ذلك الكل والذي يتكون من أجزاء متداخلة فيما بينها ومعتمدة على بعضها البعض."

أنواع الأنساق : يمكن التمييز بين نوعين مختلفين من الأنساق حسب صلتهما بالمحيط :

-الأنساق المنغلقة (Clos) :

تتسم بالصلابة فلا يوجد تغير في المكونات، كما أنها لا تستقبل ولا ترسل لا (المادة الطاقة و المعلومات)، ويعود استقرارها إلى حالة من التوازن والسيطرة، فهي منعزلة عن المحيط، ويمكن ان يتعلق الامر بالانساق النظرية كانساق المعدلات او تلك المتعلقة بالفيزياء و الكمياء،...الخ وهنا قوانين الديناميكية الحرارية لا تطبق الا على هذا النوع من الانساق.

-**الانساق المنفتحة:** هي في تبادل مستمر مع المحيط فيما يخص المواد، الطاقة، المعلومات، و من بين هذه الانساق على غرار الانساق الحية التي تتطور مع الزمن من الميلاد الى الوفاة من خلال مراحل التي تشكل ما يعرف بدورة الحياة.

- **الحدود Boundaries:**

يتم تحديد الأنساق عن طريق الحدود، وتعرف الحدود على أنها خط يكمل امتداده دائرة كاملة حول مجموعة من المتغيرات بحيث يكون تبادل الطاقة والتفاعل داخل الدائرة بين هذه المتغيرات أكثر من ذلك الموجود بين المتغيرات الموجودة داخل الدائرة وخارجها عبر حدود النسق. والحدود خطوط وهمية لا وجود لها وهي تستخدم لتحديد نسق ما وتعريفها يتم حسب المحكات والمعايير المستخدمة من قبل الأخصائي الاجتماعي (Rodway, 1986: 516).

- **التغذية العكسية Feedback**:

تحدث التغذية العكسية عن طريق عمليتي استيراد وتصدير الطاقة والتي عن طريقها يتم تفاعل الأنساق مع البيئة الخارجية. وتعتمد الأنساق على عملية التغذية العكسية لتقويم أدائها وتعديل مسارها.

- **فقدان الطاقة Entropy**:

تتفاعل الأنساق مع البيئة المحيطة بها عن طريق عمليتي استيراد وتصدير الطاقة والمعلومات. ويرمز لعملية الاستيراد بالطاقة الداخلة، ويقصد بها كل ما يأتي إلى النسق من البيئة الخارجية من معلومات وطاقة. ويرمز لعملية التصدير بالطاقة الخارجة، ويقصد بها كل ما يصدر من النسق من معلومات وطاقة إلى البيئة الخارجية. وبالتالي من الممكن القول بأن كل نسق لديه مستوى معين من الطاقة. وبعبارة أخرى فإن كل نسق لديه مخزون معين من الطاقة يستخدمه في تفاعلاته مع البيئة الخارجية.

وتصل الأنساق مرحلة فقدان الطاقة إذا بدأت بتصدير طاقة أكثر من تلك التي تستوردها، فمرحلة فقدان الطاقة يقصد بها النقص في مخزون النسق من الطاقة والناتج عن تصديره طاقة أكثر من تلك التي يستوردها.

- **تخزين الطاقة Negentropy:**

باستخدام نفس التعبيرات عن استيراد وتصدير الطاقة، تصل الأنساق إلى مرحلة تخزين الطاقة إذا بدأت تستورد طاقة أكثر من تلك التي تصدرها، فعملية تخزين الطاقة هي الزيادة في مخزون النسق من الطاقة والناتج عن ميل النسق للأخذ من البيئة الخارجية أكثر مما يقدم لها.

- **التوازن Equilibrium:**

تسعى الأنساق الحية سعياً حثيثاً من خلال عمليتي استيراد وتصدير الطاقة إلى الوصول إلى مستوى التوازن بحيث لا تصدر ولا تستورد طاقة أكثر مما يجب.

ثانيا–المقاربة النسقية:

تعرف المقاربة النسقية بأنها مقاربة تتعلق بنموذج من الفكر والإجراء يتجاوز كثيرا ميدان العمل الاجتماعي، وترتكز على تمثلات جديدة للواقع آخذة بعين الاعتبار عدم الاستقرار والانفتاح والتغير والفوضى والغموض والتعارض والتناقض والابداع وغيرها من الخصائص التي كانت تدرك منذ وقت قريب على أنها غير علمية أصبحت وسائل مهمة لفهم تعقيدات الواقع، ولا يمكن تعريف المقاربة النسقية كعلم أو مادة تعليم بل كمقاربة تقترح وجهة جديدة حول الواقع وطريقا لفهم المشاكل في تعقيداتها النسقية، ففهم الفرد من خلال هذه المقاربة يتعدى واقعه النفسي الداخلي ليشمل تحليل معطيات السياق المحيطة به والقادرة على إعطاء معنى لما يمر به من أحداث بشكل عام.

ثالثا: مبادئ المقاربة النسقية

تستخدم المقاربة النسقية عددا معينا من المفاهيم يمكن تجميعها على النحو التالي:

–مفاهيم أساسية ذات طبيعة عامة.

– مفاهيم تكميلية هي تقنية أكثر.

المبادئ العامة:

1–التعقيد The complexity : ان الوعي بالتعقيد هو سبب بطء ظهور المقاربة النسقية، بدون تعقيد فإن العقلانية التحليلية كافية لفهم العالم والعلوم، ويشير هذا المفهوم إلى جميع صعوبات الفهم (الغموض وعدم اليقين وعدم القدرة على التنبؤ والعشوائية) التي يفرضها محاولة فهم واقع معقد.

النسق System : هذا المفهوم هو الأساس الذي تقوم عليه المقاربة النسقية، وله عدة تعريفات التعريف الواسع قدمه Jacques Lesourne للنسق بأنه" مجموعة من العناصر في تفاعل ديناميكي، والتعريف الضيق قدمه Joel de Rosnay للنسق باعتباره" مجموعة عناصر في التفاعل الديناميكي ، منظمة وفقا لهدف ما ، وهذا التعريف يركز على غرض أو هدف النسق.

وقد اقترح الباحثون أيضا العديد من الانساق:

- الانساق المفتوحة / والمغلقة على بيئتهم.
- الانساق الطبيعية / الاصطناعية / الاجتماعية.
- الانساق المنظمة بشكل هرمي / الانساق الشبكية.

الكلية Wholeness : هذه خاصية الأنساق المعقدة غالباً ما يترجمها القول المأثور الكل هو أكبر من مجموع الأجزاء" وطبقاً لهذا القول لا يمكن لأحد أن يفهم ظاهرة معينة دون النظر إليها ككل، وتعبر هذه الكلية عن ترابط عناصر النسق وتماسك الكل .(Donnadieu et al., 2003).

التفاعلية interaction : التفاعل حسب المقاربة النسقية هو عبارة عن مجموعة التأثيرات ما بين أفراد أو ما يسمى في المقاربة النسقية بين عناصر النسق والتي تمثل بنية التنظيم والتفاعل ، وهو كذلك سيرورة نتائج السببية الدائرية الكفيلة بتحديد العلاقات والتعديلات .

إذا كانت هذه المفاهيم الأربعة ضرورية، فمن المهم معرفة مفاهيم أخرى مكملة للمقاربة النسقية وهي:

المعلومات Information:

هذا المفهوم المعاصر الذي ظهر مع علم التحكم الآلي يتم تضمينه في المقاربة النسقية حيث يتم تبادل المعلومات باستمرار بين الأنظمة وداخلها جنبا إلى جنب مع التدفقات الأساسية الأخرى للمواد والطاقة.

الغرض الذي يمكننا من ربط الأفكار بالهدف**Purpose** : حيث يسعى أي نظام لتحقيق غرض أو هدف ما.

التغذية المرتدة Feedback: الانظمة في تغير مستمر لأنها تستجيب لقوى خارجية وفي نفس الوقت تسعى لتحقيق اهدافها والتغذية المرتدة هي الآلية التنظيمية التي يمكن من خلالها المحافظة على الاتزان بين الحاجة للتغيير وضبط التغيير من أجل سلامة النسق وهناك نوعان: تغذية مرتدة سالبة تعمل على التصحيح عن طريق التقليل أو التخفيف من المدخلات حتى يعود النسق الى حالة الاستقرار والتغذية المرتدة الموجبة التي تعمل على تضخيم رد الفعل حيث تعمل على زيادة الانحراف (كفافي،1999، ص98).

عدم التجزئة :(non sommativité) : كنتيجة طبيعية المبدأ الكلية النسق ليس عبارة عن مجموع عناصره، وأن تحليلا شكليا لأجزاء منعزلة بصورة اصطناعية يؤدي إلى تهديم موضوع الدراسة فنجد إهمال العناصر لصالح الصيغة الكلية والسير نحو جوهر تعقدها، أي في بنيتها، وعليه فالتفاعل وكأنها مختلطة أو مندمجة معا.

– **التعديل الذاتي** (l'auto regulation) : أدخل هذا التعبير من قبل لوريا (A.R.Luria) للدلالة على أثر الرقابة والتخطيط الذي يمكن أن تمارسه الإنتاجية الكلامية لشخص ما على نشاطاته الحركية الذاتية ، فالنسق المفتوح يحتوي على ميكانيزمات تسمح له بالحفاظ على حالة من الثبات في حالة تغيير المحيط، وهو ما يسمى بالاتزان أو التوازن الحيوي.

الضبط الذاتي: (Thomeostasie) استخدم هذا مصطلح للمرة الأولى من قبل كانون **(W.Cannon)**

بالاستناد إلى العمليات الفيزيولوجية المنسقة والمعقدة التي تبقي عمل مختلف الأعضاء في توازن ذاتي يتجه نحو حالة مستقرة وقاعدية، ويتوافق الضبط الذاتي مع إبقاء التوازن الأمثل والتكيفي بين الجسم ومحيطه الداخلي والخارجي.

التوازن والتغيير: هو مفهوم ديناميكي يحرص على التعديلات الضرورية للنسق واستمراره لأن هذا الأخير يميل الى التحولات والاستقرار، أما التغيير فيهتم بالتحول والنمو، ويتميز النظام بالحيوية عندما تعمل وظيفة التغيير بشكل يتكيف مع السياق العام، وقد يلاحظ في بعض الوضعيات تأزم النسق بحيث تغلب وظيفة الاتزان على وضعية التغيير وفي هذه الوضعية يخل بالنظام إلى غاية فك الأزمة، أما في حالة الاستمرار يصبح النسق مريضا .